نظرة فى المذهب الحيوى

للأستاذ محمد فريد وجدى بك

ألمنا فى مقالتنا المنشورة فى الجزء التاسع من هذه المجلة، بأشهر المذاهب فى الحياة ، وقد تبين للقراء أن المذهب المادى فيها قد اضمحل كل الاضمحلال ، وحقر أمام المشاهدات حقارة قضت على أكبر أشياع المادية أن يبعدوه عن مجال البيولوجيا ، وهو إذا لم يكن له حظ من هذا المجال فقد قضى عليه بالزوال قضاء لامرد له .

نعم ، لأن مؤدى المذهب المادى هو أن تعلل جميع ظواهر الموجودات بعلل مادية باحتة، لادخل لشىء أرقى منها فى إيجادها ؛ فاللجوء إلى ذكر شىء اسمه الحياة مجهول الأصل وذى خصائص تتسلط على المادة فتحيلها من حال إلى حال يشل من حركة المذهب المادى، ويحط من قدره ، ويتأدى به إلى الزوال .

أليس قول العلامة (لودانتك) ـ وهو من أكبر أشياع المادية فى هذا العصر ـ : إن لكل خلية حياة خاصة تتألف من مجموعها الحياة العامة للكائن الحى، منافيا للمادية منافاة صريحة ويعتبر من الاقوال غير المفهومة ؟ فهو يوافق جميع البيولوجيين فى أن الحياة سر مكنون لم يتوصل إلى إدراكه العقل البشرى إلى اليوم ، فكيف نسمح لأنفسنا حيال مجهول ضخم من هذا الطراز أن نحكم عليه بحكم، أو أن نحصره فى دائرة ضيقة من خيالنا؟ ثم بناء نظريات على هذا الحكم لاتعتبر جريئة فحسب، ولكن تعتبر غير معقولة أيضاً؛ فعلى أى نظام تتألف حياة عامة من مجموعة لاتحصى من حياة خاصة؛ فتتألف منها شخصية ذات أغراض معينة ، واتجاهات متلائمة ؟ فالحيوان الذى يفترض أن شخصيته العامة مؤلفة من شخصيات خلايا جسمه يجب أن يفقد من شخصيته بقدر مايفقد من جسده ؛ فكان يبتنى على هذه النظرية : أنه لوقطعت يداه ورجلاه وعاش بعد ذلك عاش فاقدا لجزء من شخصيته يساوى الاعضاء التى فقدت منه، والمشاهد غير ذلك . فمذهب لودانتك مهدوم من أساسه ، ولايجوز الاعتداد به مادام لا يؤدى إلى حل يثلج الصدر عليه ، أو يتفق والمعلومات المقررة فى مجال البيولوجيا .

أما قول العلامة (أرنست هيكل) الالمانى، من أن كل خلية لها روح تدبرها، ولكنها لاتشعر بوجودها، فمن أغرب الاقوال وأدعاها للحيرة ، فكيف تكون روح مدبرة ولاتشعر بوجودها؟ أليس التدبير يستند على التعقل، والتعقل يقوم على النظر والتأمل ؟ فكيف يعقل أن يكون كل ذلك ولا يكون من نتائجه شعور بالذات ؟ وإذا كانت روح الخلية لاتشعر بذاتها فكيف تدبر أمرها، وتقود حياتها ؟ .

لندع هذا الآن جانبا، ولننظر فى أقوال العلامة (توماس هكسلى) الانجليزى، فقد ذهب فى تأييد مذهب (جون هنتر) القائل بأن الحياة هى علة وجود الاجسام إلى أبعد حد، وضرب

لنا مثلا بالحيوان الدنيء المسمى بالأميب، فقال: إنه مجرد من الأعضاء ومن الأجزاء المحدودة، ومع ذلك فان فيه المميزات والخصائص التى للحياة الكاملة، حتى إنه ليستطيع أن يبتنى لنفسه قواقع ذوات تراكيب معقدة أحيانا وعلى غاية ما يمكن من الجمال .

هذا قول لا يصح أن يقرأ قراءة سطحية، ويترك بدون نظر ونقد ، فان الحكم بأن الحياة هى علة وجود الاجسام الحية، لا أنها نتيجة لها، هدم للمذهب المادى من أساسه ، فهو يقتضى أن يكون فى الكون أصل يقال له الحياة، حتى يصح القول بأنها هى التى تبتنى الاجسام الحية ، وكان الماديون يقولون قبل ذلك بأن الحياة هى نتيجة التركيب المادى ، وقد بناه هنتر وهكسلى وغيرهما على المشاهدات، لا على مجرد الترجيح العقلى؛ وذلك أن الحيوان المسمى بالاميب من الكائنات المجردة عن الأعضاء التى كانت تظهر أنها مواطن للتفكير كالمخ والاعصاب ، فهو أشبه بكيس ليس فيه أعضاء محدودة ، وقد قلبه بعضهم فجعل باطنه ظاهره فلم يحدث فيه ذلك ثرا سيأ، بل استمر على الحياة كأن لم يفعل به شيء ، ومع خلو هذا الحيوان الدنيء من كل مظاهر الاجسام المركبة، نجد له جميع مميزات الحياة وخصائصها: كالتأمل والتعقل والتدبير، حتى انه ليبتنى لنفسه قواقع ذوات تراكيب معقدة، وعلى جانب عظيم من الجمال ... فكيف هذا كله من حيوان مجرد من الاعضاء، وخاصة من الاعضاء التى يظن أنها مركز للتعقل والتدبير؟ ألا يدل هذا على أن للحياة صلا عاما، فاذا حل بحيوان فلا يبالى أكان له أعضاء تعقل أم لم يكن، لأنها هى المدبر العاقل لا الحيوان نفسه ، فتؤتى هذا المكان الحى بجميع حاجاته حتى إنها لتبتنى له قوقعة مركبة، وتحليها له بالمواد الملونة ليرتاح إليها النظر إذا وقع عليها ؟

إن هذا أمر مدهش ومحير للعقل فى آن واحد .

نعم! إن المدهش من رؤيتنا حيوانا دنيئا تصدر عنه أعمال لا تصدر إلا من الانواع المرتقية، وليس له أعضاؤها ولا تجاربها ، ومحير للعقل لأننا لو أسندنا للاصل الحيوى العام المنبث فى الكون التعقل والتدبير، فقد حملنا كاهل الفلسفة وقراً لا تقوى على حمله فى حالتها الراهنة ، ولا تجرؤ على تحمل تبعتها ، فأن مثل هذا القول يقتضى أن يكون الاصل الحيوى مدركا لنفسه، لأن التدبير وإيتاء كل فى حاجته لا يأتى من غافل ولا ذاهل ؛ ولكن التسامح فى هذا القول يقلب الفلسفة رأسا على عقب ، ويفتح للظنون والخيلات بابا لا يمكن سده بوجه من الوجوه .

وما حيلتنا فى ذلك ، وهو مبنى على المشاهدة ؟ فان لم تستطع الفلسفة أن تفسره، فعليها أن تعترف بالعجز عنه ، والاعتراف بالعجز حيال الأمور الضخام أدعى للاهتداء إلى فهمها من تفسيرها تفسيراً سطحياً، وبذل الوسع فى التدليل عليه .

أما وقد بلغنا إلى هذه المرحلة ، فقد وجب علينا أن نرجىء الكلام فيها إلى الاجزاء المقبلة من السنة الثانية « للمعرفة » إن شاء الله ، لأن خوض عبابها يقتضى وضع مقدمات موجزة تجلو غامضها ، وهذا لا يمكن أو يكون على عجل ، ولا فى مقالة واحدة ، والمسألة أهم مسائل الفلسفة على الاطلاق .

محمد فريد وجدى